مساهمة في دراسة حواضر الصحراء: ولاتة نموذجا.

أ. محمد الأمين ولد أن*

مقدمة: شكلت حاضرة ولاتة[1] عبر التاريخ جسرا للعبور والتواصل بين شمال إفريقيا وبلاد السودان، وبحكم هذا الموقع الجغرافي أصبحت نقطة عبور لجملة من القوافل التجارية، وقد اكتسبت بذلك أهمية اقتصادية خاصة من حيث أنها أول مركز للاستراحة بعد مغامرة الصحراء الشاقة حيث وصفها ابن بطوطة في رحلته المشهورة:(أنها أول عمالة السودان)[2].

وكانت المدينة عبر تاريخها منارة للعلم والثقافة في الصحراء وبلاد السودان، وقد شكلت امتدادًا لنهضة علمية واسعة عرفتها الحواضرُ المنتشرةُ في الصحراء، كتيشيت وشنقيط ووادان. اشتهرت مدينة ولاتة التاريخية العريقة منذ أقدم العصور التاريخية بمدرستها الدينية المختصة في العلوم القرآنية والدراسات الفقهية المختلفة كالفقه وأصوله والفرائض، وعلم التوحيد وعلم الحديث، وعلم اللغة العربية من نحو وصرف وغيرها من العلوم.

وقد عرفت بكثرة مجالس العلم وحلقاته فأنجبت شيوخا وعلماء كانوا روادَ إصلاحٍ وناشري علمٍ ومعرفة، مما جعل المدينة تستقطب آلاف الطلاب الذين وفدوا إليها من جميع النواحي والأقطار.

إن هذا النشاط العلمي الذي عرفته مدينة ولاتة كان نتيجة لتراكم أعمال جليلة وعوامل عديدة، أسهمتْ في تشكيل هذا البناء وتبلوره حتى أصبح حركة علمية ونشاطا فكريا ميَّز المدينة. إن موقع ولاتة في أعماق الصحراء من حيث هو معبر حتمي للقوافل التجارية القادمة من بلاد المغرب والمتجهة جنوبا إلى بلاد السودان، أضفى علـــى المدينة حركة اقتصادية نشطة أسهمت- إلى حـــد كبير- في اجتذاب العديد من القبائل والمجموعات البشرية التي آثرت الاستقرار فيها طلبا للعلم وإسهاما في التجارة الصحراوية.

يسعى هذا العمل إلى طرح جملة إشكالات من أهمها:

*- أستاذ متعاون في التاريخ المغربي الوسيط- جامعة نواكشوط- جمهورية موريتانيا.

من هم مؤسسو المدينة الأوائل؟ وكيف كانت أحوال الناس الاقتصادية؟ وما الدور العلمي الذي امتازت به المدينة؟

1- تأسيس المدينة: يدور جدل بين المؤرخين حول التاريخ الفعلي لتأسيس هذه المدينة، إذ تعتقد بعض الروايات التقليدية أنها تأسست في القرن الهجري الأول وأن مؤسسها هو الفاتح العربي عقبة بن نافع[3]. وفي هذا الصدد يقول بول ماريتي: (لقد ترك عقبة أحد أبنائه وهو العاقب في بيرو وهي مدينة قديمة قامت ولاتة على أطلالها،... وقد تابع الرجل فتوحاته في إقليم الساحل السوداني وأخضع التكرور، ثم انطلق نحو الشمال تاركا ابنه العاقب زعيما للبلاد ونائبا، وقد شيد العاقب مسجدا في بيرو- ولاتة- ودفن فيه ولا يزال ضريحه ماثلا إلى الآن)[4]. فيما يرى المؤرخ المختار ابن حامد أن المدينة تأسست من طرف زنوج سونونكيين نزحوا إليها من غانه[5]. وقد تصدعت أركان مملكة غانا حينها تحت ضغط أمراء صوصو في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وهاجر علماؤها إلى ولاتة في إطار هجرة مشهورة[6].

تذكر الباحثة منيي MEUNIE في هذا الصدد أن الرحالة المسلمين لجأوا إلى بيرو وأسسوا بها بالقرب منها ولاتة في حدود 1224م وعمروها بحيث صارت مركزا للحياة الدينية والنشاط التجاري حتى فاقت تمبكتو وجني.

وتشير منيي MEUNIE التي أصدرت كتابا حول المدن التاريخية القديمة في موريتانيا إلى أن المهاجرين هم من شيدوا ولاتة بالقرب من قرية بيرو التي كان أغلب سكانها سودا[7].

ويستشف من الرواية الشفوية المحلية إلى أن المدينة أسست قبل قدوم قبيلة المحاجيب، ذلك أن جدهم الأعلى يحي الكامل وصل ولاتة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[8].

وقد عرفت المدينة عدة تسميات أطلقت عليها في فترات زمنية متفاوتة وفي ظروف اجتماعية خاصة، فقد ذكرها ابن خلدون باسم (ولاتن)[9] ، وتحدث عنها عبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان فسماها: (بيرو)[10]. وذكر الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي أيضا أنها كانت تسمى (بيرو)، قال: أو (سير)[11].

وذكرها ابن بطوطة باسم (إيوالاتن)[12] وهو نفس الاسم تقريبا عند أحمد بن المقري[13].

والاسم المتعارف عليه حاليا للمدينة هو ولاتة، وهي إحدى المقاطعات الإدارية التابعة لولاية الحوض الشرقي بموريتانيا.

2- أوضاع ولاتة السياسية: لقد خضعت ولاتة بصورة خاصة ومنطقة الحوض بصورة عامة لسلطان إمبراطورية مالي، وذكر ابن بطوطة الذي زار المدينة في القرن الرابع عشر الميلادي أنها أول عمالة السودان، ونائب السلطان -والمعني هنا سلطان مالي- يسمى فربا حسين، وفربا معناه في لغة السونغاي النائب[14].

وتتحدث المصادر عن أن ملك السونغاي سني علي قام بشن حملة على هذه المدينة وفر على إثرها أميرها لكن سني علي (عامنه ... مقابل دفع إتاوة)[15]، وستظل ولاتة تابعة لدولة السونغاي إلى أن يحطم جيش الدولة السعدية آخر بقايا هذه السلطة[16]. بعد هذه الحادثة ستدخل منطقة الحوض بصفة عامة وولاتة كمدينة ضمن هذا الفضاء فترة من السيبة نظرا لفقدان سلطة مركزية ونظرا إلى عدم إعطائها أهمية من طرف السلطات المغربية.

ومن ثم فإن ولاتة سوف تخضع بعد فترة السيبة تلك لنفوذ مجموعات من القبائل الحسانية التي وفدت إلى المنطقة ضمن الهجرات البشرية التي شهدتها البلاد بصفة عامة والتي أخذت شكل موجات متتالية من الغرب نحو الشرق، وهكذا وقعت ولاتة تحت نفوذ عدة قبائل حسانية أهمها: أولاد يونس وأولاد أمبارك ومجموعة مشظوف التي هي من صنهاجة وامتدت فترة حكمهم حتى مجيء الاحتلال الفرنسي.

ويمكن إرجاع الوضعية السياسية المضطربة التي عرفتها المنطقة بشكل عام مع غيرها إلى كون السلطة السياسية الحسانية (النظام الأميري) لم تملك من المقومات الاقتصادية ما يخولها البقاء والاستمرار، لذلك كانت مواردها عبارة عن إتاوات تفرضها على المجموعات المحلية المنتجة في هذه المنطقة[17].

وعلى ضوء ذلك عاشت المدينة فترة توتر من الناحية السياسية نظرا لتصاعد الفوضى السياسية وتعاقب سلط الإمارات فيها، وحروبها فيما بينها بالإضافة إلى جماعة المحاربين الذين اتخذوا الغزو والنهب وسيلة للعيش فيها خاصة في عهد أولاد أمبارك. وترتب على هذا الوضع جو من الذعر والفزع، ولم يكن للمجتمع الولاتي من وسائل الدفاع حينها سوى ما توفره طبيعة المدينة من أسوار ومخابئ لا يعرف الغزاة البدويون لاقتحامها أي سبيل ، وهذا ما جعل بعض الغزاة يلجأ إلى فرض حصار على مصادر المياه حتى تؤدى لهم مبالغ من المال ترضي جشعهم[18]، الأمر الذي دفع انبوي بن باب أحمد المحجوبي الولاتي إلى حد حفر بئر وسط الـ لسد عطش أهالي المدينة وذلك بواسطة عمال أهداهم إياه الحاج عمر الفوتي[19].

وقد تعرضت المدينة كذلك لهجوم عصابات من اركيبات الشمالية التي تحبذ الهجوم على حين غفلة كلما كانت الفرصة مواتية لنهب الممتلكات، وقد ضاق بهم الأهالي ذرعا حتى ظهرت إمارة آل المحيميد المشظوفية سنة 1283هـ، وعند ذاك ساد الأمن والاستقرار لأن آل المحيميد كانوا معروفين بحرصهم على إشاعة الأمن والعدل في أول عهدهم. وأعطت هذه الإمارة عناية خاصة لمدينة ولاتة وخصصت لها حامية عسكرية وأسست بها قلعة حصينة للسهر على حمايتها[20]، كما قرب القائمون على الإمارة علماء المدينة وذلك بتعيينهم الفقيه محمد يحيى الولاتي قاضيا للقضاة سنة 1284هـ/ 1867م.

3- أوضاع المدينة الاقتصادية: مكن موقع ولاتة الجغرافي بين شمال إفريقيا وبلاد السودان من الاستفادة بشكل كبير من التجارة التي ربطت بين المنطقتين خلال القرون الماضية، وترتبط ولاتة بخطين للقوافل التجارية هما:

- خط مراكش- خط الجل- شنقيط- تيشيت- ولاتة.

- خط سجلماسة- تغازة- تاودني- ولاتة.

وينبهنا الرحالة ابن بطوطة خلال زيارته لولاتة سنة 1352م إلى اتساع المدينة ونشاطها التجاري ومكانة السلطة بها، كما نستشف من وصفه لها ازدهار البريد إلى جانب الإيجار وقطاع الخدمات كالترجمة والحراسة[21].

وبعد غزو تنبكتو من طرف الصوصو في القرن الثامن عشر الميلادي بدأت هجرة أخرى لسكان هذه النواحي السكان باتجاه ولاتة مما أعطاها مركزا دينيا وتجاريا ونقطة مهمة بالنسبة للطرق التجارية الصحراوية الغربية.

وقد ارتبطت ولاتة بعلاقات تجارية مع فضائها كمدينة تنبكتو وكاله وانيور في مالي الحالية، وتيشيت إلى الشمال منها على بعد عشرة أيام للقافلة من ولاتة، وهذا ما جعل التجارة تزدهر فيها ازدهارا لم يعرف له مثيل في المنطقة.

كما ازدهرت فيها الصناعات اليدوية المختلفة إلى جانب الزراعة بمختلف أنواعها وخاصة زراعة البطيخ في موسم الأمطار، كما اشتهرت المدينة بزراعة مادة التبغ ذات المردودية الكبيرة في إطار التجارة الصحراوية. وكان للمدينة منجمان للملح هما: تكورارت وتنيولك ولعب هذان المنجمان قديما وحتى الآن دورا هاما في اقتصاد المنطقة برواج موادهما.

وكانت تنطلق من المدينة رحلتان سنويتان إلى كل من السودان (مالي حاليا) والسينغال والمغرب، وسيظل هذا التواصل قائما حتى مجيء الاستعمار الفرنسي[22].

4- الحياة العلمية: لقد عرفت ولاتة عبر التاريخ بمدينة العلم والمعرفة. يتجلى دورها الثقافي من خلال المصادر التاريخية التي تحدثت عن نشأة هذه المدينة وروابطها الخارجية ونهضتها الداخلية، فابن بطوطة مثلا في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تحدث عنها بوصفها إحدى أهم الحواضر الصحراوية إشعاعا ثقافيا، فقد لقي إبان وجوده بها قاض للمدينة عرفه باسم محمد بن عبد الله بن ينومر وأخوه الفقيه المدرس يحيى[23].

ولم تكن روابط ولاتة مع محيطها الخارجي مقتصرة على الروابط التجارية فحسب بل إن الروابط الثقافية والدينية كانت قائمة مع جميع أنحاء دول الإسلام. ولعل أهم مظهر من ذلك هو الركب السنوي الذي ينطلق من المدينة باتجاه الحج وهذا الركب قدم معه ابن بطوطة أثناء عودته إلى ولاتة.

وقد كان الحج بعد قوافل التجارة بمثابة الفرصة التي يتم فيها التبادل الثقافي بين المدينة والعالم الخارجي، حيث يمر الحجاج في طريقهم بجميع الحواضر الثقافية الدينية بالمغرب وتونس ومصر. ومن أهم العلماء الذين لهم رحلات مدونة نذكر على سبيل المثال -لا الحصر- رحلة محمد يحيى الولاتي إلى الحج وقد استغرقت هذه الرحلة ستة سنوات إذ خرج من مسقط رأسه ولاتة يوم 7 رجب 1311هـ / 14 يناير 1894، ولم يرجع إلى الصحراء ويلقي عصى الترحال بقرية أروان إلا يوم ست شوال 1317هـ/ 7 يناير 1900م[24]، كما نذكر محمدي بن سيد عثمان وغيرهم.

فقد اشتهر الفقيه محمدي ولد سيد عثمان(المتوفى سنة 1336هـ)، الذي حج وله رحلة مخطوطة. وقد كان الحج مناسبة للعلماء لاستقدام المؤلفات في مختلف ميادين المعرفة.

كما اشتهرت ولاتة بمحاضرها المتعددة التي كانت محجة لطلاب العلم من جميع الآفاق، إذ وفد إليها الكثير من الطلاب وخاصة في فترات الهدوء والاستقرار، ففي بعض الفترات يقل الإقبال بسبب الاضطرابات الأمنية والحروب، فمثلا في فترة أولاد أمبارك مثلا حرمت المدينة من أهم رافد يمثل أعظم عنصر منشط للحركة الثقافية في المدينة ألا وهو إقبال طلبة العلم عليها لما في ذلك من المخاطرة، إلا أنه يلاحظ أن هذه الفترة الحرجة خلقت لدى شباب المدينة

إقبالا شديدا على الدرس والتحصيل وانكبابا أكثر وكانوا يقولون (هذه ثروتنا الوحيدة التي لا يستطيع الغزاة نهبها).

أما الفترة التي صاحبت عهد آل المحيميد فإن أصدق ما يمكن أن توصف به هو أنها مثلت خاتمة العهود الذهبية في تاريخ المدينة الثقافي، حيث عاد تدفق طلبة العلم إلى محاضر المدينة من كل حدب وصوب، ونشطت حركة التأليف إلى أعلى مستوى لها[25]. وتشهد لذلك ذخائر المعرفة في الفقه واللغة والبيان والنوازل والتاريخ.

خاتمة: وقصارى القول أن مدينة ولاتة الحاضرة النائية في الجنوب الشرقي الموريتاني حاليا كانت تمثل نقطة ومرتكزا مهما في تجارة الصحراء. وبموقعها هذا استقبلت رجالا وتجارة وتركت صدى في تاريخ المنطقة بشكل عام.

كما أن مختلف الهجرات التي جلبت إليها سكانا من السودان أثرت في تشكلة ساكنتها بالإضافة طبعا إلى الفترات التي كانت خاضعة فيها لسلطة لسلطة مملكة السونغاي مما جعل نائب السلطان فيها يتلقب بألقاب هذه المملكة. كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة في معرض حديثه عن إقامتها بتلك المدينة.

وقد خضعت المدينة لعدة سلط محلية بدأت بسلطة القبيلة ثم تتالت عليها السلط الحسانية التي كانت ظاهرة فريدة قبل أن تنتهي إلى سلطة إمارة مشطوف التي ينتسب مؤسسوها إلى صنهاجة.

وفي كل الأحوال ظل دور حاضرة ولاتة الثقافي والاقتصادي متميزا. فقد أنجبت علماء ذائعي الصيت واشتهرت بمحاضرها العلمية التي كانت تستقبل الطلاب بمختلف مستوياتهم. أما دورها الاقتصادي فكان يتمثل في كونها محطة هامة وبوابة السودان الغربي، كما أن معادن الملح فيها كانت تساعد في إمداد السودان بهذه المادة الهامة في المبادلات التجارية حينئذ. فولاتة ظلت بمختلف جوانب الحياة فيها حاضرة بدوية صحراوية ذات دور في الإشعاع العلمي ومحطة هامة في التجارة عبر الصحراء وموطنا لمجموعات قبلية هامة عبر العصور.

الهوامش:

1 – مدينة تقع حاليا في عمق الصحراء بموريتانيا، وهي إلى الجنوب الشرقي إذ تبعد عن العاصمة نواكشوط مسافة 1300 كلم.

2 – ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار الكتب العلمية، د.ت ، بيروت، ص.687

3 – هو عقبة بن نافع الفهري(1هـ –63 هـ/ 621م–683م)، قاد حملات الفتح الإسلامي في المغرب حتى وصل إلى السوس، بنى مدينة القيروان سنة 670م وأسس جامعها.

4 – بول مارتي: كنتة الشرقيون (تعريب محمد محمود بن ودادي)، د.ت، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ص.15

5 – المختار بن حامد: موسوعة حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص.140

6 – المختار بن أباه: الشعر والشعراء في موريتانيا، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987، ص20.

7- MEUNIE J.D., Cités Anciennes de Mauritanie, Provienne du Tagant et du Hodh, C.Klinch sieek, Paris, 1961, p72.

8 – سيدات بن بابي: ولاتة من الماضي إلى الحاضر، ط1، 2005، ص113.

9- ابن خلدون: كتاب العبر، ج7، ص.117

10 – عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان ، ترجمة وتحقيق هوداس وبنوه ، باريس 1981 ، ص.21

11 – الشيخ سيدي محمد الكنتي: الطرائف والتلائد (مخطوط، ص8)

12 – ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص .687

13 – أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، 11 مجلد ، المجلد 7 ، ص.30

14 – ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص.687

15 – مارمول: إفريقيا، ج3، تعريب مجموعة من الباحثين، ص.198

16 – محمد الأغظف بن الداه: الأوضاع البشرية في الحوض من سنة 1691 إلى سنة 1712، المدرسة العليا للتعليم 83–84، ص77.

17 – محمد الأقظف بن الداه: مرجع سبق ذكره، ص.79

18– سيداتي بن بابي: مرجع سبق ذكره، ص .65

19– مقابلة مع الفقيه الداه ولد أيده بمنزله الكائن في نواكشوط، بتاريخ 2012/4/14.

20 – سيداتي بن بابي: مرجع سبق ذكره، ص .66

21 – ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص .687

22 – سيداتي بن بابي: مرجع سبق ذكره، ص .66

23– ابن بطوطة: مصدر سبق ذكره، ص .687

24– للمزيد بهذا الخصوص ينظر محمد يحيى الولاتي: الرحلة الحجازية، تخريج وتعليق محمد حجي، بيروت 1990، دار الغرب الإسلامي.

25 – سيادتي بن بابي: مرجع سبق ذكره، ص67.